

المستطرف في كل فن مستظرف

وله رضي الله تعالى عنه وقائع كثيرة مثل هذه .

وكان معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه قد سلك طريق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في ذلك وكان زياد بن أبيه يسلك مسلك معاوية في ذلك حتى نقل عنه أن رجلا كلمه في حاجة له وجعل يتعرف إليه ويظن أن زيادا لا يعرفه فقال أنا فلان ابن فلان فتبسم زياد وقال له أتتعرف إلي وأنا أعرف بك منك بنفسك ؟ والله إنني لأعرفك وأعرف أباك وأعرف أمك وأعرف جدك وجدتك وأعرف هذه البردة التي عليك وهي لفلان وقد أعارك إياها فبهت الرجل وارتعد حتى كاد يغشى عليه .

ثم جاء بعدهم من اقتدى بهم وهو عبد الملك بن مروان والحجاج ولم يسلك بعدهما ذلك الطريق واقتفى آثار ذلك الفريق إلا المنصور ثاني خلفاء بني العباس ولي الخلافة بعد أخيه السفاح وهي في غاية الاضطراب فنصب العيون وأقام المتطلعين وبث في البلاد والنواحي من يكشف له حقائق الأمور والرعايا فاستقامت له الأمور ودانت له الجهات ولقد ابتلي في خلافته بأقوام نازعوه وأرادوا خلعه وتمردوا عليه وتكاثروا فلولا أن الله تعالى أعانه بتيقظه وتبصره ما ثبت له في الخلافة قدم ولا رفع له مع قصد أولئك القاصدين علم لكنه بث العيون فعرف من انطوى على خلافه فعالجه باتلافه واطلع على عزائم المعاندين فقط رؤوس عنادهم بأسيافه وكان بكمال يقظته يتلقى المحذور بدفعه دون رفعه ويعاجل المخوف بتفريق شمله قبل جمعه فذلت له الرقاب ولانت لخلافته الصعاب وقرر قواعدها وأحكمها بأوثق الأسباب فمن آثار يقظته وفطنته ما نقله عنه عقبة الأزدي قال دخلت مع الجند على المنصور فارتابني فلما خرج الجند أدنانني وقال لي من أنت ؟ فقلت رجل من الأزدي وأنا من جند أمير المؤمنين قدمت الآن مع عمر ابن حفص فقال إنني لأرى لك هيبة وفيك نجابة وإنني أريدك لأمر وأنا به معنى فإن كفيتنيه رفعتك فقلت إنني لأرجو أن أصدق ظن أمير المؤمنين فقال أخف نفسك واحضر في يوم كذا قال فغبت